معاني شهادات إبراهيم الخليل

بقلم: الدكتور أحمد أديب أحمد

لقد وردَتْ أسماءُ الكوكبِ والقمرِ والشَّمسِ في شَهاداتِ رسولِ الولايةِ سيِّدنا إبراهيم الخليل (علينا سلامُهُ) في قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْـرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

هـذهِ الآيـةُ من الآيـاتِ القرآنيـةِ العجيبـةِ التي يَتجلَّى فيهـا التَّوحيدُ تَجَلِّيًا تَعليميًّا وتَفهيميًّا شديدَ الرِّفعةِ.

فَقَولُ رسـولِ الولايةِ إبراهيم الخليل (علينا سـلامُهُ) هنا هو التَّوحِيدُ الخَالِصُ، حيثُ الدَّلالةُ بـِهِ إلَى الكَوكَبِ الدُّرِّيِّ البادي في غربيِّ السَّماءِ التي يَنظرُ الخليلُ إليها، عِلمًا أنَّهُ لَم يَقُل: (مَا أَنتَ رَبِّي)، بَـل قـَالَ: (هـَذَا رَبِّي) دلالةً على إقرارِهِ بالأَوَّلِ النَّائِرِ والأزَلِ الزَّاهِرِ القائلِ في مُحكَمِ التَّنزيلِ: (هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ)، فَلَمَّا أَفَلَ؛ أَي أَورَى السَّـلبَ، قَالَ: (لاَ أُحُبُّ الآفِلِينَ)؛ أَي نَفَى عَنهُ السَّلبَ وَأَثبَتَ لَهُ الإيجابَ، وَلَو كَانَ كَمَا يَزعَمُ الَّذِينَ هُمْ خَلفَ الجِدَارِ هَائِمُونَ وَعَنِ التَّذكِرَةِ مُعرِضُـونَ أَنَّ إِلَهَ سيِّدنا رسولِ الولايةِ إبراهيمَ الخليل (علينا سلامُهُ) معدومٌ لَكَانَ ضالاً والعياذُ بالله.

ولَمَّا رأَى القمرَ سَاطِعَ البُرهَانِ آمَنَ بالدَّيَّان وثنَّى بالشَّهَادَةِ قائلاً: (هَذَا رَبِّي) وَهُوَ مستقيمٌ على شهادَتِهِ الأولى، لاَ عَنها تَحَوَّل، ولا لَها نَفَى، ثمَّ ثلَّثَ بالشَّهادةِ بقوله: (وَلَمَّا رَأَى الشَّمسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكبَر)، ثُمَّ قَالَ: (لَئِن لَم يَهدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَـالِّين) دليلاً على أنَّ قولَهُ هذا هو الهدايةُ، وما دونَهُ هو الضَـلالُ، وهذه هي الرُّؤى الثَّلاثةُ لرسـولِ الولايةِ إبرَاهِيمَ الخَلِيل (علينا سلامُهُ).

وهذا تعليمٌ لنا وتنبيهٌ وتفهيمٌ، بأنَّ رسولَ الولايةِ إبرَاهِيمَ الخَلِيل (علينا سلامُهُ) لاَ يَدخُلُ عَلَيهِ الوَهمُ، إذْ حاجَّهُ قومُهُ بذلكَ فقالَ لهم: (أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ، وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ شهاداتِهِ الثَّلاثةَ لَم تَكُن شِركًا باللّهِ، بَل سِوَى ذلك هُوَ الشِّرك.

أمَّا الأمنُ فهو عَدَمُ الخَوفِ، فأيُّهُما أحقُّ بالأمنِ: الْمُهتدِي للشَّهادَةِ أو الْمُشرِكُ والْمُنْكِرُ؟ بالتَّأكيدِ الْمؤمنُ الْمُخلِصُ الْمُهتدِي للشَّهادَةِ وهو الذي وَصَفَهُ سيِّدنا رسولُ اللّهِ محمَّد (ص) بقولِهِ: (النَّاسُ هالِكُونَ إلاَّ العالِمون، والعالِمونَ هالِكُونَ إلاَّ العامِلون، والعاملونَ هالِكُونَ إلاَّ الْمُخلِصُون، والْمُخلِصُونَ على خَطَرٍ عَظيمٍ).

من هنا أوجَبَ للمؤمنينَ بهذا الأمنِ والهدايَةِ وعدمِ الظُّلمِ إثبَاتَ الحُجَّةِ وإيضاحَ الْمَحَجَّةِ وعُلُوَّ الدَّرجةِ لأهلِ الْمعرفةِ، وهو قوله تعالى: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ).

نكتفي لعدم الإطالة والله أعلم

الباحث الديني الدكتور أحمد أديب أحمد